إحيـــاء
Ihyae

دراسة

الإنسية الإسلامية

في كتاب النشأتين للراغب الأصبهاني

علال الفاسي

15 يونيو 2019

مواضيع الدراسة:

مفهوم الإنسية

الإنسية عند فلاسفة المسلمين

الراغب الأصبهاني عالم القرآن ومفكر عصره

تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين

الخلق الإنساني لا يتم إلا بالنشأتين

السعادة سعادتان

معرفة الإنسان نفسه وربه

ماهية الإنسان

الإنسان هو المقصود من خلق العالم

لماذا وُجد الإنسان؟

تفاوت الناس واختلافهم

هل يمكن الوصول للسعادتين؟

تظاهر العقل والشرع

ما يتعلق بالشرع من الأفعال

مفهوم الإنسية:

سبق لي أن ألقيت محاضرة عن الإنسية المغربية كجزء من الإنسية الإسلامية، وعرّفت حقيقتها حسب المنهج العصري، الذي لا يقصرها على المستخرج من أدب قدماء اليونانيين والرومانيين؛ لأن الإنسية أصبحت تعتبر ملكا مشاعا للأمم كلها.

وهي في نظر المعاصرين جسم وروح؛ فالروح هي التي يسمونها الإنسية الخالصة، والجسمية: هي أعمال الفن، والإنتاج الجميل.

هي الحسن بكل أشكاله، هي عظمة الحق والطيبوبة.

فالإنسية إذن، أن يتحقق في الإنسان إشعاع اجتماعي للجمال، وللغاية من العالم، والأهداف الإنسانية.

وحينما تتحقق لحظة سعيدة من لحظات التاريخ، بقوة وتناسق، ترتفع الإنسية حينئذ إلى قمة دائمة، فتغدو جديرة بأن تسمى الإنسية الخالدة.

وأحيانا يصل الإنسان إلى درجة لا يتصور إمكان تجاوزها.

وهكذا لا يمكن تجاوز مقامات الرسل مثل عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم، ولا مكانة المنجزات الدينية، والفنية الخالدة؛ لأنه لا قيمة لما لا يدوم، وليس حقا إلا ما هو أبدي.

ولهذا كان كل شعب، وكل شخص، إنسانيا بمقدار ما يحاول أن ينتج في ذاته شيئا من هذا المثال؛ أي أن يكون نموذجا لا يفنى.

إذا وصفنا الإنسية بأنها خالدة، فمعنى ذلك، أنها تنطوي على أمل، أي على وجود مستمر، وفي كل وقت ومجتمع، لأناس يتعشقون الحق، والجميل، والطيب، ويستطيعون أن يبلغوا حماسهم لغيرهم.

وهكذا نجد في هذا العهد، كما في كل عهد سابق، شعورا قويا بضرورة اتساق حقيقي، واستخراج إنسية خالدة من تراث الإنسانية، ومن كفاحها في سبيل عالم أفضل.

الإنسية في الفكر الإسلامي:

وإذا كانت المسيحية، والماركسية، واللايكية، تعمل كلها الآن على إبراز وجهات نظرها في شكل تجريدي بالنسبة للأولى، وفي شكل واقعي بالنسبة للثانية، ومثالي بالنسبة للثالثة؛ فقد رأيت من الواجب أن نبحث في تراثنا الإسلامي، وواقعه المعاش في كل وقت، عن جهود رجال هاموا بالحق، والجمال، والطيبوبة، واستطاعوا أن يبلغوا لغيرهم ما ارتسم في أذهانهم، من معنى الإنسان، ومركزه من الكائنات.

فسبق المحْدَثين إلى تكوين إنسية إسلامية قوامها الروح، ومظهرها التكليف، وسبيلها العمل لخير الدنيا وسعادة الآخرة.

ومن آثارهم يتجلى لنا أن الإنسية الإسلامية ليست تجريدا إناسيا anthropotogique للإنسان؛ ولكنه توضيح لمركز الإنسان، باعتبار علاقاته الاجتماعية، والاقتصادية، والصلات القائمة بين الأفراد، وتسلسل العمران في العالم، عن طريق المجهود والواقع، تنفيذا للتكليف الذي أُلزم به الإنسانُ لعمارة الأرض وفق نواميس مودعة فيها، وتحقيقا لحرية النشاط الإنساني، عن طريق المسؤولية الملقاة على عاتقه، لإقرار الطاعة في الشخص، والشرائع والأشكال.

الراغب الأصبهاني عالم القرآن ومفكر عصره:

ومن هؤلاء الرجال الذين يزخر بهم تاريخ مجتمعنا الإسلامي: فيلسوف، وعالم ممتاز، لم يهتم بأمره الباحثون المحْدَثون، ولا كتب عنه كثيرا المترجمون السابقون، مع أنه من أعظم من أنجبتهم أمتنا، ولغتنا: علما، وأدبا، وفكرا.

ألا وهو الإمام أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل؛ المشهور بالراغب الأصبهاني.

المشتهر عند العلماء بكتابه "مفردات القرآن"، الدال على تذوقه للعربية، وإدراكه للمعاني القرآنية.

وقد تحدثت عنه مرة في جامعة أصبهان، عرضا، أثناء محاضرة عن العطاء الإيراني للثقافة الإسلامية، فاستغرب القوم هذا الاسم غير المألوف لديهم، ووعدني بعض أساتذتهم أن يكتبوا عنه، وما أظن أنهم فعلوا.

عاش الراغب في بغداد في القرن الخامس، وتوفي في بداية القرن السادس الهجري، "الثاني عشر الميلادي".

قال في روضات الجنات: إن ذلك كان سنة 502 أي: 1108م.

ولا نعرف تاريخ ميلاده، الذي كان ببلاده أصبهان.

وقد اشتهر، حتى أنه كان يقرن بالإمام الغزالي.

ولا صحة لما زعمه البعض، من أنه كان معتزليا؛ فقد قال فخر الدين الرازي، في كتابه "أساس التقديس" أنه سني، ويؤكد ذلك رؤاه المنبثة في كتبه المتعددة، والتي تقوم كلها على عقائد السنة وتأييدها.

ومعظم مؤلفاته في التفسير والأخلاق.

ويقول كاتب ترجمته في دائرة المعارف الإسلامية، أنه استهل دراساته للقرآن وهي الدراسات التي قيل أن البيضاوي نقل عنها برسالة عنوانها: "رسالة منبهة على فوائد القرآن".

وهي مفقودة الآن، ولعلها نفس الرسالة المعروفة باسم "مقدمة التفسير" التي طبعت بالقاهرة عام 1329، ذيلا لكتاب: "تنزيه القرآن عن المطاعن" لعبد الجبار.

وصنف الأصبهاني بعد ذلك معجما قيّما للقرآن، رتبه على حروف الهجاء، بحسب حروف الابتداء، وعنوانه: "كتاب مفردات ألفاظ القرآن".

قال في كشف الظنون؛ أنه ذكر فيه أول ما يحتاج أن يشتغل به من علوم القرآن: العلوم اللفظية؛ ومنها تحقيق الألفاظ المفردة، وهو نافع في كل علم من علوم الشرع.

فأملاها على حروف التهجي، معتبرا فيه أوائل حروفه الأصلية، والإشارة إلى المناسبات التي بين الألفاظ المستعارات، والمشتقات.

وتقول الدائرة: أنه في مقدمة هذا الكتاب، يرسم خطة كتاب آخر، في مترادفات القرآن "الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد، وما بينها من الفروق الغامضة".

ولعل كتابه "تفسير القرآن" الموجود في آيا صوفيا، رقم 212، قد صنفه بهذه الطريقة.

وقد تكون الإشارة إلى التأويل لآيات القرآن "الواردة في أكثر من موضع، مع اختلاف في التعبير.

ولعله نفس كتاب "حل متشابهات القرآن" الموجود مخطوطا في "اسطنبول، راغب 180".

ومن أشهر كتبه الأدبية: كتاب "محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء"، وهو مقسم إلى خمسة وعشرين جزءا؛ تشتمل هي الأخرى على فصول وأبواب، تتضمن الموضوعات الأدبية، وتبدأ بذكر الذكاء والغباوة، وتختم بذكر الملائكة والجن والحيوان.

وبعض فقراته نَثرٌ، وبعضها شعر، وهو مطبوع مرارا.

وللراغب كتاب آخر في الأدب باسم **تحقيق البيان** ورد ذكره في كتاب مكارم الشريعة مشهد رقم 5؛ وهو في اللغة، والكتابة، والأخلاق، والعقائد، والفلسفة، وعلوم الأوائل.

وذكر الزركلي في الأعلام له كتاب "الاعتقاد"، مخطوطا، وكتاب أفانين البلاغة.

ومن كتبه النفيسة "**الذريعة إلى مكارم الشريعة**".

ويعتقد كاتب ترجمة الراغب، في دائرة المعارف الإسلامية، أنه هو كتاب الأخلاق.

أما الزركلي؛ فقد ذكر الأخلاق، أو أخلاق الراغب، كتابا مستقلا عن الذريعة، وذلك ما يقتضيه صنيع صاحب كشف الظنون، حيث ذكر كتاب أخلاق الراغب في مادة الألف والخاء، وذكر في حرف الذال والراء كتاب الذريعة.

فدلّ ذلك على أنهما كتابان مستقلان.

ويظهر في مقدمة المفردات أن كتاب الذريعة، سابق على مفردات القرآن؛ فقد قال الراغب في هذه المقدمة: "وأشرت في كتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة، أن القرآن، وإن كان لا يخلو الناظر فيه من نور ما يريه، ونفع ما يوليه، فإنه:

كالبدر من حيث التفت رأيته ... يهدي إلى عينيك نورا ثاقبا

كالشمس في كبد السماء وضوؤها ... يغشى البلاد مشارقا ومغاربا

وقد ذكروا في ترجمة الغزالي، أنه كان معجبا إلى حد كبير بكتاب الذريعة، حتى أنه كان لا يفارقه، وإذا سافر جعله في كمه، ولا يحمل غيره معه.

وحق له ذلك؛ وقد استفدت منه أثناء تأليفي لكتاب "مقاصد الشريعة ومكارمها" إذ نقلت عنه فقرات مفيدة.

وله كتاب مماثل اسمه: "تفصيل النشأتين، وتحصيل السعادتين"؛ قال عنه الزركلي، أنه في الحكمة وعلم النفس.

وهو في الحقيقة في جملة الموجودات، ومكان الإنسان منها، ومبدئها، ومنشئها، ومنتهاها، وما جعل له من السعادة في الدارين، باكتساب الإنسانية، وكيفية التطرق إليها.

وتقول الدائرة أنه طبع بالقاهرة، في تاريخ مجهول، وقام بطبعه الجزائري[1]، عن مخطوط ببيت المقدس "المكتبة الخالدية رقم 72 س3"، الذي يرجع تاريخه إلى عام 963هـ، وفي بيروت سنة 1319 وسنة 1323، وطبعه أيضا مصطفى أفندي الكتبي بجوار الأزهر في القاهرة، على نسخة منقولة عن النسخة الخطية القدسية، وهي بلا شك نسخة طبعة الشيخ طاهر الجزائري، ولكنها قوبلت على نسخة أخرى، كتبها لنفسه الشيخ رضى الدين، ابن أبي بكر الحلبي، سنة 963، هكذا كتب على ظهر طبعة الكتبي، الموجودة تحت يدي.

ويلاحظ أن تاريخ النسخة التي كتبها الشيخ الحلبي، هو تاريخ مخطوطة بيت المقدس، التي طبع عنها الشيخ طاهر الجزائري.

والشيخ طاهر من قادة النهضة السلفية في بلاد الشام، وعنايته بنشر هذه الرسالة، دليل على إدراكه الفائدة المرجوة من اطلاع المسلمين عليها، وتعميم نشرها بين الأدباء والمثقفين.

---

[1] الطاهر الجزائري: هو الشيخ الطاهر بن صالح بن أحمد بن موهوب السمعوني الجزائري أصلا، الدمشقي مولدا ومقاما، ولد ليلة الأربعاء ربيع الثاني سنة 1268هـ، الموافق 1852م، هاجر والده من بني وغليس بالقبائل إلى سوريا، وفيها تولى قضاء المالكية، كان الطاهر أديبا وشاعرا له اهتمام بالإصلاح الديني، والاجتماعي، وقام بدور كبير في نشر الثقافة وإصلاح التعليم بسوريا، وكان واسع العلم بالمكتبة العربية ومخطوطاتها، وفاته كانت في سنة 1338هـ/1920م دفن حسب وصيته في سفح قاسيون بجبل دمشق.
ومن آثاره المطبوعة في مصر والشام: الجواهر الكلامية في العقائد الإسلامية، ومد الراحة إلى أخذ المساحة، والبيان لبعض مباحث القرآن، ورسائل في النحو والبلاغة والعروض.

وها نحن أولاء نستعرض الإنسية الإسلامية، كما ترتسم من خلال التحليلات التي كتبها الراغب في هذه الرسالة القيمة:

تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين:

يريد المؤلف بالنشأتين: النشأة الأولى، المذكورة في قوله تعالى:

{**وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ**} [الواقعة: 62]

وهذه النشأة هي التي وقعت في سبع درجات مشار إليها بقوله تعالى:

{**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**} [المؤمنون: 12 - 14]

1- من سلالة
2- من طين
3- ثم جعلناه نطفة في قرار مكين
4- ثم خلقنا النطفة علقة
5- فخلقنا العلقة مضغة
6- فخلقنا المضغة عظاما
7- فكسونا العظام لحما، ثم أنشأناه خلقا آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين.

والغرض من ذكر هذه الأطوار في القرآن مجموعة ومتفرقة، هو التذكير بأصل الإنسان، وكيفية إيجاده لإثبات وجود الموجد.

والإيجاد نوعان:

الأول: إبداع: وهو إيجاد شيء، لا عن شيء موجود من قبل.

والثاني: الخلق: والخلق في أكثر الأحوال يستعمل في إيجاد الشيء من الشيء قبله؛ كخلق الإنسان من التراب، ويقتضي تركيبا، قال تعالى: {**وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**} [الذاريات: 49]

والإبداع هو في المعقولات العلوية، السابقة على المحسوسات السفلية، وفي الروحانيات، وكل شيء من المبدع هو تام؛ لأنه لو كان فيه نقص لدل على نقص مبدعه.

وأما المخلوقات، فبما أنها مركبة، فيحتمل أن يكون فيها نقص ويكون النقص عارضا من جهة ما تركب منه، ومن جهة مبدعه وفاعله.

فلهذا صارت المبدعات من الأشياء العلوية، معراة عن اعتراض الفساد فيها حالا، فحالا، بل تبقى على حالتها إلى أن يشاء الله تعالى أن يرفع العالم[2].

والنشأة الثانية: هي التي أشار قوله تعالى: {**ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**} [العنكبوت: 20]

وبقوله: {**ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ**} [المؤمنون: 14]

والنشء الآخر، هو ما في الإنسان من قوة العقل، والفكر، والنطق.

فالخلق الإنساني لا يتم إلا بالنشأتين:

1. الجسمية
2. والملكات العقلية، والفكرية، واللسانية

لأنه بذلك يمتاز عن بقية الحيوان.

وإذا كان الإنسان يطلق على البشري، ولو كان ناقص الملكات، إذا كان تام الخلقة، فما ذلك عند الراغب إلا إطلاق مجازي، أما الحقيقة فهي لا تعني بالإنسان كل حيوان منتصب القامة، عريض الظفر، أملس البشرة، ضاحك الوجه.

فمن ينطقون ولكن عن الهوى، ويتعلمون ولكن ما يضرهم ولا ينفعهم، ويعلمون ولكن ظاهرا من الحياة الدنيا وهو عن الآخرة غافلون، ويكتبون الكتاب بأيديهم، ولكن يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا، ويجادلون، ولكن بالباطل ليدحضوا به الحق، ويؤمنون ولكن بالجبروت والطاغوت، ويعبدون ولكن من دون الله ما يضرهم ولا ينفعهم، ويبيتون ولكن ما لا يرضى من القول، ويأتون الصلاة، ولكنهم من المصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون، ويذكرون ولكن إذا ذكروا لا يذكرون، ويدعون ولكن مع الله إلاها آخر، وينفقون ولكن لا ينفقون إلا وهم كارهون، ويحكمون ولكن حكم الجاهلية يبغون،

[2] تفصيل النشأتين ص 12.

ويحلفون، ولكن يحلفون إفكا: فهؤلاء وإن كانوا بالصورة المحسوسة ناسا، فهم بالصورة المعقولة لاناس ولا نسناس، كما قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: "يا أشباه الرجال ولا رجال"[3].

بل هم من الإنس المذكور في قوله تعالى: {**شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا**} [الأنعام: 112]

وما أرى البحتري إذ اعتبر جل الناس بالخلق، لا الخلق مبعدا في قوله:

لم يبق من جل هذا الناس باقية   ينالا الوهم إلا هذه الصور[4]

ولا من يقول:

فجلهم إذا فكرت فيهم   حمير أو كلاب أو ذئاب[5]

ولذلك لابد من البحث عن جملة الموجودات، ومكان الإنسان ومنها ومبدئها، ومنشئها، ومنتهاها، وما جعل له من السعادة في الدارين، باكتساب الإنسانية، وكيفية التطرق إليها[6].

والسعادة سعادتان:

الأولى: المذكورة في قوله تعالى: {**اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ**} [البقرة: 40]

وهي: تفضيل الإنسان على العالمين.

والثانية: المذكورة في قوله تعالى: {**وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ**} [هود: 108]

---

[3] مقولة لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وردت في نهج البلاغة، ص70، خطبة رقم 27، كتاب "نهج البلاغة". ضبط نصه وابتكر فهارسه العلمية الدكتور صبحي الصالح، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة 1387هـ، موافق 1967م.
يقول كرم الله وجهه: "يا أشباه الرجال ولا رجال، حلوم الأطفال، وعقول ربات الحجال، لوددت أني لم أركم، ولم أعرفكم معرفة".

[4] ديوان البحتري، ضمن قصيدة يمدح فيها علي بن مر الطائي، سنة 232هـ، مطلعها:
في الشيب زجر له، لو كان ينزجر   وواعظ منه، لولا أنه حجر
الديوان، الجزء الثاني، الصفحة 379، تحقيق وشرح وتعليق حسن كامل الصيرفي، دار المعارف بمصر، طبعة 1963.

[5] ورد هذا البيت، الذي لا يعرف قائله، في كتاب: تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، للراغب الأصبهاني الصفحة 05، طبعة بيروت، 1319.

[6] تفصيل النشأتين، ص.4.

معرفة الإنسان نفسه وربه:

ولكي يتحقق الإنسان بتحصيل السعادتين، لابد له من التذكر في النشأتين، لابد له من معرفة نفسه؛ لأنه بذلك يتوصل إلى معرفة الإله، الذي هو المنشئ، المبدع، الخالق لما يشاء.

ولذلك نطق الحكماء مرة بقولهم: أول واجب على الإنسان معرفة نفسه، ومرة بقولهم: أول واجب على الإنسان معرفة ربه.

وليس بين الحكمتين منافاة؛ لأنهم عنوا بالبداءة بمعرفة النفس الترتيب الصناعي، والبداءة بمعرفة الرب من حيث الشرف والفضل؛ لأن معرفة الله هي أفضل المعارف.

وقد أوضح الراغب قيمة وثمرة معرفة الإنسان نفسه، لأنها مجمع الموجودات، فمن عرفها فقد عرف الموجودات، ومن عرف نفسه عرف العالم، ومن عرفه صار في حكم المشاهد لله تعالى، وهو يخلق السماوات والأرض.

ثم إن في محاولة الإنسان معرفة نفسه تحليلا للعناصر التي يتكون منها جسميا، والملكات التي ركبت فيه عقليا وروحيا.

وهكذا بالتبصر في تطورات النشأة الأولى والثانية، يذكر الإنسان نفسه فيذكر ربه، وتتم معرفته بالله عن طريق معرفته بنفسه، قال تعالى: {**نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ**} [الحشر: 19]

والعكس، أنهم ذكروا الله، فذكرهم نفوسهم، وما يجب عليهم من اهتمام بها.

وإذن فدراسة الإنسان لنفسه، بداية المرحلة في عالم المعرفة، وبداية العروج في معارج التربية الذاتية، والخروج من إناسية الإنسان إلى إنسيته.

فأول ما يعرفه المرء حين يدخل في التحليل للكون أن هنالك موجودات كثيرة: واجب الوجود منها، هو من لا سبب لوجوده، بل هو السبب في كل موجود، وكل موجود فمنه، وبه تعالى وجوده[7].

ثم بعد ذلك هناك موجودات من قبيل: المعقولات العلوية، وأخرى هي المحسوسات السفلية، وهذه هي الجمادات، والناميات، والحيوانات والإنسان.

[7] تفصيل النشأتين. ص 11.

وقد جمع الله في الإنسان قوى بسائط العالم، ومركباته، وروحانياته، وجسمانياته، ومبدعاته، ومكوناته.

فالإنسان من حيث أنه بواسطة العالم حصل، ومن أركانه وقواه أوجد، وهوالعالم.

ومن حيث أنه صغر شكله، وجمع فيه قواه، كالمختصر من الكتاب، هو الذي قلل لفظه، واستوفى معناه.

والإنسان هكذا هو، إذا اعتبر بالعالم، ومن حيث أنه جعل من صفوة العالم، ولبابه، وخلاصته، وثمرته؛ فهو كالزبد من المخيض، والدهن من السمسم، فما من شيء إلا والإنسان يشبهه من وجه.

فإنه كالأركان من حيث ما فيه من الحرارة، والبرودة، والرطوبة، والبيوسة.

وكالمعادن من حيث ما هو جسم.

وكالنبات من حيث ما يتغذى، ويتربى.

وكالبهيمة من حيث ما يحس، ويتوهم، ويتخيل، ويتلذذ، ويتألم.

وكالسبع من حيث ما يحرض، ويغضب.

وكالشيطان من حيث ما يغوي، ويضل.

وكالملائكة من حيث ما يعرف الله تعالى ويعبده، ويخلفه.

وكاللوح المحفوظ، من حيث قد جعله الله مجمع الحكم، التي كتبها فيه على سبيل الاختصار.

فقد ذكر بعض الحكماء في بدن الإنسان أربعة آلاف حكمة، وفي نفسه قريبا من ذلك.

وكالقلم من حيث ما يثبت بكلامه صور الأشياء في قلوب الناس، كما أن القلم يثبت الحكم في اللوح المحفوظ.

ولكون الإنسان من قوى مختلفة، قال تعالى: {**إِنَّاخَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ**} [الإنسان: 2]

أي مختلطة من قوى أشياء مختلفة.

ولكون العالم والإنسان متشابهين، إذا اعتبرا، قيل الإنسان عالم صغير، والعالم إنسان كبير، ولذلك قال الله تعالى: {**مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ**} [القمان: 28]

فأشار بالنفس الواحدة إلى ذات العالم.

ولما كان كل مركب من أشياء مختلفة، يحصل باجتماعهن معنى ليس بموجود فيهن على انفرادهن كالمركبات من الأدوية، والأطعمة؛ كذلك في نفس الإنسان حصل معنى ليس في شيء من موجودات العالم.

وذلك المعنى هو ما يختص به من خصائصه، التي بها تميزه عن غيره من هيئات له؛ كانتصاب القامة، وعرض الظفر، وانفعالات له، كالضحك، والحياء، وأفعال، كتصور المعقولات، وتعلم الصناعات، واكتساب الأخلاق.

ماهية الإنسان:

يقول الراغب: "ماهية كل شخص بصورته، التي يتميز بها عن أغياره، كصورة الصورة والسكين، والسيف، والمنجل، ونحوها".

وهذا يبين خروج الراغب عن الحد الصوري، الذي يجرد الحقيقة في كلية تندرج تحتها أجزاؤها إلى الفكر التجريبي الإسلامي، الذي يجعل من خواص الصورة الحد الذي ترسم به.

ويبني الراغب الحد المميز للشيء بصورته، أنه لما كان الإنسان جزأين: بدن محسوس، وروح معقول، كما نبه عليه الله تعالى بقوله: {**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**} [ص: 72]

كان له بحسب كل واحد من الجزأين صورة:

1. فصورته المحسوسة البدنية: انتصاب القامة، وعرض الظفر، وتعري البشرة عن الشعر، والضحك.
2. وصورته المعقولة الروحانية: العقل، والفكر، والروية، والنطق.

فالإنسان هو الحيوان الناطق.

ولم يعنوا بالنطق اللفظ المفسر به فقط، بل عنوا المعاني المختصة بالإنسان.

فقد عبروا عن ذلك كله بالنطق، لأنه يعبر عن جملة الشيء بأخص ما فيه، أو بأشرفه.

وللإنسان إطلاقان:

1 إطلاق عام:

ويراد به كل منتصب القامة، واسع الظفر إلخ ...

2 وإطلاق خاص:

ولا يقال إلا لمن عرف الحق فاعتقده، والخير فعمله؛ وبقدر ما يحصل عليه من هذه الصفات، ليستحق الإنسانية، وهي تعاطي الفعل المختص بالإنسان، فيقال فلان أكثر إنسانية.

من هنا نستفيد أن الراغب يطلق الإنسانية، ويريد بها ما نصطلح عليه اليوم باسم الإنسية. وهو يصورها بناء على الفكر الإسلامي محصورة في معرفة الحق واعتقاده، وتبين الخير وعمله.

فإذا تحقق عند المرء الإيمان بالحق، والعمل بما يقتضيه من شريعة الخير؛ فقد تحققت إنسيته.

وترتبط هذه الإنسية برباط الهدف الذي يرمي إليه الإنسان، والذي خلق من أجله؛ وهو تحقيق السعادتين: سعادة الدنيا، وسعادة الأخرى.

وهنا يقف الراغب ليبين أن الإنسان من بين الموجودات خلق صالحا للدارين؛ لأن الله خلق ثلاثة أنواع من الأحياء:

نوعا لدار الدنيا فحسب، وهي الحيوانات.

ونوعا للدار الآخرة فحسب، وهو الملأ الأعلى.

ونوعا للدارين وهو الإنسان.

لذلك تركب من: **حيوانية؛** تتجلى في الشهوة، والغذاء، والتناسل، والمنازعات إلخ ...

ومن **ملائكية؛** تتجلى في العقل، والعلم، وعبادة الرب، والصدق، والوفاء[8].

والحكمة في ذلك أنه مكلف بالخلافة في الأرض؛ فلابد أن يكون له من الصفات ما يمكنه من المقام فيها، وأداء الواجب عليها، وهو يجزى على عمله بدخول الجنة، ومجاورة الله، فلابد أن يكون له مؤهلات لحياة الخلود الأخرى.

ثم يعمد الراغب إلى تمثيل ذات الإنسان، بصورة بلد أحكم بناؤه، وشيد بنيانه، وحصن سوره، وخطت شوارعه، وقسمت محاله، وعمرت بالسكان دوره، وسلكت سبله، وأجريت أنهاره، وفتحت أسواقه، واستعملت صناعته، وجعل فيه مِلِك مدبر، وللملك وزير، وصاحب بريد، وأصحاب أخبار، وخازن، وترجمان، وكاتب، وفي البلد أخيار وأشرار، فصناعها.

وهي القوى السبعة، التي يقال لها: الجاذبة، والماسكة، والهاضمة، والدافعة، والمانية، والعادية، والمصورة.

والملك: العقل، ومنبعه من القلب.

والوزير: القوة المفكرة، ومسكنها وسط الدماغ.

وصاحب البريد: القوة المتخيلة، ومسكنها مقدم الدماغ.

وأصحاب الأخبار: الحواس الخمس، ومسكنها الأعضاء الخمسة.

والخازن: القوى الحافظة، ومسكنها خلف الدماغ.

والترجمان: القوى الناطقة، وآلتها اللسان.

والكاتب: القوى الكاتبة، وآلتها اليد،

وسكانها: الأخيار والأشرار، هي القوى التي منها الأخلاق الجميلة والأخلاق القبيحة.

---

[8] تفصيل النشأتين. ص 25.

وكما أن الوالي إذا تزكى وساس الناس بسياسة الله، صار ظل الله في الأرض، كما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **"السلطان ظل الله في الأرض، ويجب على الكافة طاعته"**[9].

كما قال الله تعالى: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ**} [النساء: 59]

كذلك متى جعل العقل سائسا، وجب على سائر قوى النفس أن تطيعه.

وكما أن الله تعالى جعل الناس متفاوتين، كما نبه الله تعالى عليه بقوله: {**وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا**} [الزخرف: 32]

كذلك جعل قوات النفس متفاوتة، وجعل من حق كل واحدة أن تكون داخلة في سلطان ما فوقها، متأمرة على ما دونها.

فحق القوة الشهوانية أن تكون مؤتمرة للقوة الغضبية، وحق القوة الغضبية أن تكون مؤتمرة للقوة العاقلة.

وحق القوة العاقلة أن تكون مستضيئة بنور الشرع، ومؤتمرة لمراسمه، حتى تصير هذه القوى متظاهرة، غير متعادية، كما قال الله تعالى:

{**وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ**} [الحجر: 47]

وكما لا ينفك أشرار العالم من أن يطلبوا في العالم الفساد، ويعادوا الأخيار، كما قال الله تعالى {**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا**} [الأنعام: 123]

وقال سبحانه: {**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ**} [الأنعام: 112]

كذلك في نفس الإنسان قوى رديئة من الهوى، والشهوة، والحسد، تطلب الفساد، وتعادي العقل والفكر.

---

[9] "السلطان ظل الله في الأرض، ويجب على الكل طاعته". لم يرد بهذه الصيغة في أي من الكتب، لكن ورد بصيغ كثيرة، اختلف العلماء في إسنادها من حديث موضوع إلى حديث ضعيف.
وقد ورد في السلسلة الضعيفة للألباني؛ ولكن بصيغة: "السلطان ظل الله في الأرض، فإن أحسنوا فلهم الأجر وعليكم الشكر، وإن أساءوا فعليكم الصبر وعليهم الإصر، لا يحملنكم إساءته على أن تخرجوا من طاعته، فإن الذل في طاعة الله، خير من خلود في النار، لولاهم ما صلح الناس".

وكما نبه أنه يجب للوالي أن يتبع الحق، ولا يصغي إلى الأشرار، ولا يعتمدهم، كما قال تعالى: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ**} [آل عمران: 118] الآية،

وقال تعالى: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**} [المائدة: 51]

وقال: {**وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ**} [المائدة: 49]

كذلك يجب للعقل والفكر أن يجاهد أعداء المسلمين، كما قال تعالى: {**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ**} [الأنفال: 60]

كذلك يجب للعقل أن يعادي الهوى، فإن الهوى من أعداء الله، بدلالة قول النبي صلى الله عليه وسلم: "**ما في الأرض معبود أبغض إلى الله من الهوى**"[10]، ثم تلا {**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**} [الجاثية: 23]

وكما أن من استحوذ عليه الشيطان أنساه ذكر الله، كذلك العقل إذا استحوذ عليه الهوى.

وكما أنه يجب للوالي أن يسالم أعاديه، إذا لم يقو عليهم، كما قال الله تعالى: {**وإن جنحوا للسلم فاجنح لها**}[11] وأن لا يركن إليهم وإن سالمهم، كما قال الله تعالى: {**ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار**}[12].

كذلك يجب للعقل أن يسالم الأشرار من قوى النفس إذا عجز عنها، وأن لا يركن إليها.

وكما أن الوالي إذا أحس بقوة احتاج إلى أن يعدل إلى نقض العهد، وإظهار المعاداة، كما قال تعالى: {**فإذا انسلخ الأشهر الحرم، فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم، وخذوهم واحصروهم، واقعدوا لهم كل مرصد**}[13].

---

[10] وجدته منقولا في كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي؛ اقتبس من قول الغزالي: "ولذلك قال تعالى: {أفرأيت من اتخذ إلهه هواه}، وقال صلى الله عليه وسلم: "أبغض إله عبد في الأرض الهوى".

[11] سورة الأنفال: الآية 62.

[12] سورة هود: الآية 113.

[13] سورة التوبة: الآية 05.

كذلك حق العقل إذا قوي على قوى النفس أن لا يداهنها.

وكما أن شياطين الإنس والجن، يضعف كيدهم على من تحصن بالإيمان، واستعاذ بالله، وتقوى على من والاه، كما قال تعالى: {**إنما سلطانه على الذين يتولونه، والذين هم به مشركون**}[14]؛ كذلك يضعف كيد الهوى عن العقل إذا تقوى بالله، واستعاذ به.

فحق العقل أن يستعيذ من الهوى والشره، والحرص والأمل، وأن يطهر ذاته منها، ومن سائر القوى الرديئة؛ استعاذةَ إبراهيم صلوات الله عليه، حيث قال: {**رب اجعل هذا البلد آمنا، واجنبني وبني أن نعبد الأصنام**}[15].

فالقوى الرديئة والإرادات الرديئة، في ذات الإنسان جارية مجرى أصنام، قل ما ينفك الإنسان من عبادتها كما قال الله تعالى: {**وما يؤمن أكثرهم بالله، إلا وهم مشركون**}[16].

الإنسان هو المقصود من خلق العالم:

يعتبر الراغبُ الإنسان الغاية من خلق العالم؛ فلولاه ما وجد الكون، وإنما وجدت الكائنات شيئا فشيئا، إعدادا لوجود الإنسان.

فالغرض من الأكوان أن يحصل منها النبات، ومن النبات أن تحصل الحيوانات، ومن الحيوانات أن تحصل الأجسام البشرية، ومن هذه أن تحصل الأرواح الناطقة، ومن الأرواح الناطقة أن تحصل منها خلافة الله في أرضه، فيتوصل بإيفاء حقها إلى النعيم الأبدي.

فالإنسان إذن المقصود من خلق العالم، وهو زبدة الكون وسلالته، وخصه الله بالكرامة إذ قال: {**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا**} [الإسراء: 70]

وقد جعل الله كل المخلوقات مساعدة للإنسان، فقال: {**هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا**}[17].

---

[14] سور النحل: الآية 100.
[15] سورة إبراهيم: الآية 35.
[16] سورة يوسف: الآية 106.
[17] سورة القرة: الآية 28.

ولم يفضل الإنسان الكائنات بقوته، ولا بحسن منظره، ولا بجميل لباسه، ولكن بالمؤهلات التي أعطيها، ليكون خليفة الله في أرضه.

لماذا وُجد الإنسان؟

وينبني على هذا التفضيل للإنسان على غيره، لسبب ما اختص به من عقل، وروية، ونطق، كما بينا.

فما الغاية من وجوده، وما الغرض الذي خلق من أجله؟

وللجواب على هذا، يقول الراغب: "الغرض منه أن يعبد الله، ويخلفه، وينصره، ويعمر أرضه؛ وتدل على ذلك آيات كثيرة: {**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**}[18]. {**إني جاعل في الأرض خليفة**}[19] {**واستعمركم فيها**}[20] {**كونوا أنصارا لله**}[21] إلخ...

ويوضح ما سبق؛ أن الأفعال التي اقتضت إرادة الله إيجادها، أربعة أنواع:

الأول: ما تولى إبداعه بنفسه، بصفته {**بديع السماوات والأرض**}[22].

والثاني: ما استعمل فيه ملائكته {**فالمدبرات أمرا**}[23].

والثالث: أفعال سخر لها عناصر وموجودات؛ كالإحراق، والإذابة عند النار، والترطيب عند الماء ... ومن ذلك قوله تعالى: {**وسخر لكم الشمس والقمر دائبين**}[24].

والرابع: الصناعات والمهن المحسوسة، التي استعبد الإنسان فيها، واستخلفه، وهي الأشياء التي تحتاج صناعة أكثرها إلى ستة أشياء: إلى عنصر تعمل منه، وإلى مكان، وإلى زمان، وإلى حركة، وإلى أعضاء، وإلى آلة.

---

[18] سورة الذاريات: الآية 56.
[19] سورة البقرة: الآية 29.
[20] سورة هود: الآية 60، {هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها، فاستعفروه، ثو توبوا إليه، إن ربي قريب مجيب}.
[21] سورة الصف: الآية 14.
[22] سورة البقر: الآية 116 {بديع السماوات والأرض، وإذا قضى أمرا، فإنما يقول له كن، فيكون}.
[23] سورة النازعات: الآية 05.
[24] سورة إبراهيم: الآية 33، {وسخر لكم الشمس والقمر دائبين، وسخر لكم الليل والنهار، وآتاكم من كا ما سألتموه، وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها، إن الإنسان لظلوم كفار}.

وقد خص الإنسان بهذا الضرب، وجعل لكل نوع من الإنسان مقاما معلوما، كما نبه عليه قوله تعالى: {**قل كل يعمل على شاكلته**}[25]. {**انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض**}[26].

فالمهمة التي طوق بها الإنسان هي عمارة الأرض بالعمل المطلوب منه، في الصناعات، والمهن المحسوسة، وقيامه بهذا الواجب جزء من عبادته لربه.

فالعمل المظهر الأكبر لإنسية الإنسان.

وتوزيع العمل، ليعمل كل على شاكلته، من مهمة الخلافة، التي تقتضي التنظيم والتعاون على أداء الواجب المطلوب...

والفرق بين الإنسان والملائكة؛ أن هؤلاء لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يومرون، بينما يوجد في الإنسان: الطائع، والعاصي، والمخلط يعمل عملا صالحا وآخر سيئا.

فكان لابد من الشريعة، لمظاهرة العقل ودفع الإنسان لدراسة ما في الكون، للاستفادة منه في حاجاته، وللاقتداء به في امتثاله، وعدم خروجه عما يسر له.

تفاوت الناس واختلافهم:

إذا نظر الإنسان إلى جهة الحكم التي صنعت بها الأشياء، لا يجد فيها تفاوتا {**ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت**}[27].

ولكن إذا نظرنا إلى أن كل نوع يختص بفائدة، وجدنا الأشياء مختلفة، والإنسان أكثرها اختلافا.

ويبين الراغب الحكمة في ذلك، بأن الإنسان غير مكفي بتفرده، حتى لو أن إنسانا حصل وحده، لامتنع أو تعذر بقاؤه أدنى مدة، وهو يعني بأنه لابد أن تفرد كل طائفة بمهنة، ليؤدي للآخرين خدمة، ويؤدوا له خدمات كما قال الشاعر:

الناس للناس من بدو ومن حضر　　　بعض لبعض، وإن لم يشعروا خدم[28]

---

[25] سورة الإسراء: الآية 35.
[26] سورة الإسراء: الآية 21.
[27] سورة الملك: الآية 53. {الذي خلق سبع سماوات طباقا، ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت، فارجع البصر، هل ترى من فطور}.

فالناس إذا اعتبر اختلاف أغراضهم في صناعاتهم، في حكم المسخرين، وإن كانوا في الظاهر مختارين.

وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى ما يتعلق من المصلحة بتباينهم واختلاف طبقاتهم فقال: **"لا يزال الناس بخير ما تباينوا، فإذا تساووا هلكوا"**[29].

والمقصود أن المساواة إنما تستحسن في الحقوق والواجبات، وإتاحة الفرصة للجميع، لا في أن لا يختلف الناس في مهنة ولا صنعة، عن بعضهم، فإذا تساووا في عمل واحد، بقيت الأعمال الأخرى دون من يقوم بها، فيهلكوا.

ويعقد الراغب بعد هذا بابا في أسباب تفاوت الناس من اختلاف الأمزجة، واختلاف الخلقة، واختلاف البيئة في الصلاح والفساد، إلى غير ذلك، مما لا مجال لتفصيله هنا.

ويؤكد أن من توفرت له الأسباب الطيبة، في كل ما ذكره، تنجح فيه الخيرات، من جميع الجهات، كما قال تعالى: {**لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم**}[30]

ويكون من الذين اصطفاهم الله في قوله: {**وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار**}[31].

فالتفاوت في النهاية ناشئ عن العمل، وإتقانه، والتقوى فيه: {**والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه، والذي خبث لا يخرج إلا نكدا**}[32].

والأنبياء والرسل خلقوا مثلا رائعا للبشرية، على إمكان تفتح الشخصية، والتحقق بالإنسية، إذا سار الإنسان في منهجهم، واقتفى أثرهم.

فلا يحصل للناس ما يريدونه من نمو ورفعة إلا بالاقتباس من نور الرسل الكرام، ولا سيما خاتمهم محمد عليه السلام، كما أن القمر لا يضيء بغير نور الشمس.

---

28 مقطوعة من البحر البسيط، للشاعر أبي العلاء المعري، تحت عنوان: "الناس كلهم حدم"، ديوان اللزوميات: لزوم ما لا يلزم، المجلد الثاني، دار صادر بيروت، الصفحة 398.

29 أخرجه أبو بكر الدينوري في "المجالسة وجواهر العلم"، قال: "لا يزال الناس بخير ما تباينوا، فإذا تساووا فقد هلكوا". أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن الحسن، قال: "لا يزال الناس بخير ما تباينوا، فإذا استووا فذاك حين هلاكهم".

30 سورة المائدة: الآية 68.

31 سورة ص: الآية 47 قال تعالى: {واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار، إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار، وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار}.

32 سورة الأعراف: الآية 57.

وقد خلق الله كل شيء وهداه، ولكن هدايته للجمادات بالتسخير، فالأرض إذا تركت تنحو نحو السفل، والنار إذ أشعلت تنحو نحو العلو.

أما الحيوانات فبالإلهام، كالنحل والعنكبوت، فيما يهتديان إليه، من صنع سويت على أشكال خاصة.

وهداية الإنسان بالتحين والإلهام، وبالفكر وقوة التعلم، قال تعالى:

{**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**} [النحل: 78]

وذلك ما يميز الإنسان عن غيره من الكائنات.

ومن مظاهر هذه الهداية: ميلان كل شيء إلى كمال ما.

والإنسان ينزع إلى الحصول على السعادة في الدنيا، ولكن كثيرا ما يخطئ، فيظن ما ليس بسعادة في ذاته سعادة:

قال تعالى: {**وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا**} [النور: 39]

فالنعم الدنيوية، إنما تكون نعمة وسعادة، إذا تناولها الإنسان على ما يجب، وكما يجب، ويجري بها على الوجه الذي لأجله خلق؛ فمن تناولها على الوجه الذي جعله الله انتفع بها، فكانت له نعمة، قال تعالى:

{**الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**} [الحج: 41]

ومن تناولها لا على الوجه الذي جعله الله لهم، فركنوا إليها أن يعذبهم، عادت عليهم نقمة وشقاوة: {**إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كاذبون**}[33].

---

[33] سورة التوبة الآية 55. {فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون}.

والإنسان كذلك نازع إلى السعادة الأخروية، ولكن هذه السعادة لا تدرك لذاتها في الدنيا إلا بالعقل المحض، وعقول أكثر الناس غافلة عن إدراكها.

وقد وصفها الله في قوله:

{مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى} [محمد: 15]

ولكن هل يمكن الوصول لهذين السعادتين؟

نعم؛ إذا عرف أنه في هذه الدنيا ليتزود ويعمل؛ قال تعالى: {**يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه**}[34] وقال {**لقد خلقنا الإنسان في كبد**}[35]

ولكن الناس اعتادوا على طلب الراحة، وترك الكدح والكبد؛ إما لأنهم لا يؤمنون بالآخرة، أو لغفلتهم عنها.

وقد أنشد الراغب في حق هؤلاء قول الشاعر:

أريد من زمني ذا أن يبلغني ما ليس يبلغه من نفسه الزمن[36]

وقول آخر:

مضى قبلنا قوم رجوا أن يقوموا بلا تعب عيشا فلم يتقوم[37]

وفي الناس عقلاء، عرفوا أن الدنيا دار، لمن لا دار مستقر، فاحتملوا المشقة، وعملوا للحصول على السعادتين.

وقد جعل الله للإنسان في الدنيا حرثين:

---

[34] سورة الانشقاق: الآية 06.
[35] سورة البلد: الآية 04
[36] قالها الشاعر المتنبي ضمن قصيدة مطلعها:
ولا نديم ولا كأس ولا سكن لم التعلل لا أهل ولا وطن
نظمها، وقد بلغه أن قوما نعوه في مجلس الدولة بحلب وهو بمصر، ومعنى الكلمة: أن همته أعلى أن يكون في وسع الزمان البلوغ إليها، وهو يتمنى على الزمان أن يبلغه همته.
ديوان المتنبي، وضعه البرقوقي، المجلد الثاني، الجزء الرابع الصفحة 364، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان.
[37] أورده محمد أبو القاسم الراغب الأصبهاني في كتابه: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، ضمن الباب التاسع عشر: في ذم الدنيا ونوبها، الصفحة 387، الجزء الرابع، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، تموز 1961، ونسبه إلى أبي علي كاتب بكر. كما أورده أيضا في كتاب: تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين ضمن الباب السابع عشر: في حال الإنسان في دنياه وما يحتاج أن يتزود منها، الصفحة 62، طبعة بيروت سنة 1319.

أحدهما: روحاني، كالمعارف والحكم، والعبادة، والأخلاق الحميدة.

وثمرته الحياة الأبدية والغنى الدائم.

وثانيهما: جسماني؛ كالمال، والإناث، وما ذكره الله في قوله:

{زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ} [آل عمران: 14]

والاستكثار من هذه أيضا غير مذموم، بشرط أن يكون متناولا على وفق ما جعل له.

تظاهر العقل والشرع:

يقرر الراغب أن العقل لن يهتدي إلا بالشرع، والشرع لا يتبين إلا بالعقل، فالعقل كالأس، والشرع كالبناء، ولن يغني أس، ما لم يكن بناء، ولن يثبت بناء، ما لم يكن أس.

والشرع عقل من الخارج، والعقل شرع من الداخل، وهما متعاضدان، بل متحدان.

ولكونهما متحدين قال تعالى: {**نور على نور**}[38]: أي نور الشرع، ونور العقل {**يهدي الله لنوره من يشاء**}[39].

ويقرر أن العقل بنفسه قليل الغناء[40]، لا يكاد يتوصل إلا إلى معرفة كليات الأشياء، دون جزئياتها، كأن يعلم في الجملة حسن اعتقاد الحق، وقول الصدق، وتعاطي الجميل، وحسن استعمال العدالة، وملازمته، ونحو ذلك، من غير أن يعرف ذلك في كل شيء شيء.

والشرع يعرف كليات الأشياء، ويبين ما الذي يجب أن ينعقد في شيء شيء.

ولا يعرفنا العقل أن لحم الخنزير، والدم، والخمر محرم، وأن لا ننكح ذوات المحارم، وأن نصوم ونفطر في أوقات معلومة.

ولأجل أن لا سبيل للعقل إلى معرفة ذلك، قال تعالى: {**وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا**}[41].

---

[38] سورة النور: الآية 35.

[39] سورة النور: الآية 35.

[40] وردت في كتاب النشأتين: (الفناء) بالفاء، الصفحة 67، من الكتاب المذكور، وشرحها المؤلف في الهامش الأسفل بالقول: الفناء بالفتح والمد: النفع. وعلق عليها الزعيم علال الفاسي بخط يده بالقلم الجاف، في الهامش الجانبي، فقال: (الغناء) بالغين، فيما يظهر.

ويتبين من هذه التقريرات، أن الراغب كان سنيا، ولم يكن معتزليا كما زعم البعض؛ لأنه يؤكد عدم استقلال العقل بمعرفة الحسن والقبيح في شيء شيء.

وهو في تقريره أن العقل لا يكاد يصل إلا إلى معرفة الكليات، يتفق مع ما يقوله الإمام ابن حزم في هذا الموضوع.

والبحث عن الصلة التي تربط بين المفكرَين في مثل هذه الآراء، طريف ويحتاج إلى مقارنات ومقابلات بين مؤلفات كل منهما، على أنه منذ الآن يمكن الجزم بأن الراغب لم يكن ظاهريا، لأنه كثيرا ما يستعمل قياسات في فهم مدلول الآيات والأحاديث، تخرج به أحيانا إلى طور قريب من التفسير بالإشارة.

وها نحن إزاء مثال من صميم الموضوع، الذي نبحث فيه، وهو فضيلة الشرع، الذي هو دواء ومعجون مفروغ منه: يستدل على ذلك بآيات واضحة الدلالة، ثم يروي عن بعض الحكماء أن الأرض المقدسة المذكورة في قوله تعالى: {**ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم، ولا ترتدوا على أدباركم**}[42].

هي في الدنيا الشريعة، وفي الآخرة الجنة، لأنها هي التي إذا دخلها الإنسان لا يرتد على دبره، ونال السعادة الكبرى بلا مثوبة.

وأما بيت المقدس في الأرض، فإن من يدخله، فبنفس دخوله إياه لا يستحق مثوبة، بل المثوبة تستحق بأمور أخرى، وفي حال مخصوص، قال: "وعلى هذا يحمل الحرم المذكور في قوله تعالى: {**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ**} [العنكبوت: 67]

وسأل جعفر الصادق بعض الفقهاء عن هذه الآية فقال: أريد بها مكة، فقال: وا عجبا، وأي أرض أكثر تخطفا لمن حولها من مكة؟؟

ويدل على صحة ما قال، قول الله: {**وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية**}[43].

---

41 سورة الإسراء: الآية 15.
42 سورة المائدة: الآية 21.
43 سورة الأنفال: الآية 35.

وغرض الراغب من هذا أن يبين كون الإنسان لا يكون إنسانا إلا بالدين، وأن دخول القدس أو مكة، إذا لم يكن مسبوقا وملحقا بأوصاف خاصة، تنتظم في سلك الطاعة والعمل؛ لم يكن له قيمة.

فالعمل هو الذي يحقق إنسية الإنسان، ويحول الأشياء من صفتها السلبية إلى الصفة الإيجابية.

ويستخرج من آية {**الرحمن علم القرآن، خلق الإنسان علمه البيان**}[44]، أن الإنسان لا يكون إنسانا إلا بالدين، لأنه ابتدأ بتعليم القرآن، ثم بخلق الإنسان، ثم بتعليمه البيان، ولم يدخل الواو بينها[45]، مع أن إيجاد الإنسان بحسب نظره، مقدم على تعليم البيان، وتعليم البيان، مقدم على تعليم القرآن.

لكن لما لم يعد الإنسان إنسانا ما لم يتخصص بالقرآن؛ ابتدأ بالقرآن ثم قال: خلق الإنسان، تنبيها على أن تعليم القرآن جعله إنسانا على الحقيقة، ثم قال: علمه البيان: تنبيها على أن البيان الحقيقي المختص بالإنسان يحصل بعد معرفة القرآن.

وهكذا يؤكد الراغب أن الإنسية لا تتحقق عند الإنسان إلا بالدين، وبدراسة القرآن التي تكون في الإنسان ملكة البيان القرآني، أي الحاسة التي يدركها المتقون، فيفرقون بها بين الحق والباطل، وهي المشار لها بقوله تعالى: {**إن تتقوا الله يجعل لكم فراقانا**}[46].

وتأويل آية الأمر بالدخول للقدس، وإن كان عميقا، فهو صحيح؛ فالمسلمون اليوم الذين يتحدثون عن استرجاع القدس؛ يجب أن يحققوا دينهم وطاعتهم أولا، ليتمكنوا من الدخول للقدس على الحالة المطلوبة، التي تمكنهم من النصر، وحماية الدين وشعائره.

ولابد لذلك من مجاهدة النفس، حتى تقبل تحمل أعباء الجهاد، والاستعداد له بوسائل المعرفة الحديثة، والقوة المادية، والإيمان الصادق.

---

[44] سورة الرحمن: الآيات 1-2-3-4.

[45] الواو حرف عطف تفيد الترتيب حسب قطرب، والربعي، والفراء، وثعلب، وأبو عمر، والزاهد، هشام، والشافعي، لأنه لو دخلت الواو بين الكلمات لوجب تسبيق: "خلق الإنسان" عن "علم القرآن": (انظر مغني اللبيب لابن هشام الأنصاري، حرف الواو، الجزء الثاني، الصفحة 354، تحقيق محمد محي الدين عبد المجيد، مطبعة المدني، القاهرة – مصر).

[46]سورة الأنفال: الآية 29.

ما يتعلق بالشرع من الأفعال:

عن طريق السبر والتقسيم، يحاول الراغب أن يعين منطقة تتعلق فيها الأفعال بالشرع، فالأحوال الضرورية التي لا يمكن للإنسان أن يتقصى منها؛ كالتنفس، ونبض العروق، والأفعال التي تقع على سبيل السهو، والغلط، كلتاهما أحوال لا تلحقه فيها محمدة، ولا مذمة، ولذلك لا تتعلق بالشرع ويبقى إذن ما يلحق الإنسان فيه محمدة ومذمة داخلا في منطقة التكليف.

وهذه الأفعال إما متعلقة بالجوارح؛ كالقيام، والقعود إلخ.... وإما بحفظ عوارض النفس؛ كالشهوة، والخوف، واللذة إلخ...

وإما مختصة بالتمييز والعلم، وكلها مواطن للمدح والذم، إذن مناط لحكم شرعي.

والسير في هذه المنطقة بمقتضى الأوامر والنواهي الشرعية، يعد عبادة إذا وقع على جهة الاختيار والرضى.

والعبادة ضربان: علم وعمل.

والعلم ضربان: نظري وعملي.

فالنظري: ما إذا علم كفى، ولم يحتج فيه بعده إلى عمل؛ كمعرفة وحدانية الله، ومعرفة ملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ومعرفة السماوات، وما أشبه ذلك.

والعملي: ما إذا علم لم يغن حتى يعمل به؛ كمعرفة الصلاة، والزكاة، والجهاد، والصوم، والحج، وبر الوالدين.

والمعلوم: من حيث الكيفية، ضربان: تصور وتصديق.

فالتصور: هو أن يعرف الإنسان معنى الشيء، صح عنده بدلالة، أولم يصح.

والتصديق: أن يتصور الشيء، ويثبت عنده بدلالة.

والتصديق إما بغلبة الظن، وإما بعلم اليقين، وإما بعين اليقين.

والغرض من العبادة تطهير النفس، واجتلاب صحتها.

وإنما كلف الإنسان ليزيل ما به من أنجاس وأمراض نفسه، حتى يتمكن من الحصول على حياة أبدية، وسلامة دائمة.

ولتحقيق المناط، يعقد الراغب بابا لبيان الأنجاس والأمراض، التي لا يمكن للإنسان أن يزيلها إلا بالشرع.

لأنه كما أن في البدن عوارض وأمورا لابد من إماطتها؛ كالسلي، والسرة، والقلفة، الموجودة في الصبي عند الولادة.

وكالأوساخ، والقمل، والظفر، وشعر العانة، وشعر الإبط؛ كذلك في نفس الإنسان عوارض هي نجاسات، وأمراض نفسية، يلزم إماطتها؛ كالجهل، والشره، والعجلة، والشح، والظلم.

فحق الإنسان أن يراعي هذه القوى فيصلحها ويستعملها على الوجه الذي يجب، وكما يجب، ليكون كمن وصفه الله تعالى بقوله:

{الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [النحل: 32]

أما هذه القوى التي يجب إزالتها أو إصلاحها؛ فهي القوى الثلاث التي هي دواعي الإنسان في متصرفاته، وهي: قوة الشهوة، وقوة الحمية، وقوة الفكر.

فبإصلاح قوة الشهوة، تحصل العفة، والاحتراز من الشره في كل شيء.

وبإصلاح قوة الحمية، تحصل الشجاعة، والاحتراز من الجبن والتهور والحسد، ويقع الاقتصاد في الخوف والغضب والأنفة.

وبإصلاح قوة الفكر، تحصل الحكمة، فيتحرز من البله، ويتحرى الاقتصاد في تدبير الأمور الدنيوية.

ويعني هنا الحكمة العلمية، التي يتحرى بها المصالح الدنيوية.

وبإصلاح هذه القوى، تحصل في الإنسان قوة العدالة، فيقتدي بالله في سياسة نفسه، وسياسة غيره.

والإنسان في الواقع مفطور على أن يصلح أفعاله، وأخلاقه، وتمييزه، وعلى أن يفسرها. وكما أنه مفطور عليهما خلقة، كذلك في مقدوره، إذا سلك إحدى النجدين، واستمر فيها ألفها. وإذن ففي مكنته تأديب نفسه وتهذيبها.

والناس إن تفاوتوا في أصل الخلقة، فما أحد إلا وله قوة، على اكتساب قدر ما من الفضيلة. ولولا ذلك لبطلت فائدة الوعظ، والإنذار، والتأديب.

والأفعال الجميلة والقبيحة، يقوى الإنسان فيها بتكريرها مرارا كثيرة، وزمانا طويلا، وقتا بعد وقت، في أوقات متفاوتة.

فإن من فعل ذلك في شيء اعتاده، وإذا اعتاده تخلق به.

فالحذق في الصناعة، كالكتابة مثلا، يكون باعتياده فعل من هو حاذق في الكتابة.

والأفعال التي تحصل عن الأخلاق بعد حصولها، هي عينها الأفعال التي يتعاطاها المتخلق بها حتى تصير خلقا؛ فحق الإنسان أن يتدرب بفعل الخير، فإن من تعود فعلا صار له ملكة، كالصبي قد يلعب بتعاطي صناعة، فيؤدي لعبه بها إلى أن يتعلمها.

إن المواظبة الاختيارية على الأعمال الصالحة دينية ودنيوية، هي التي تجعل الإنسان ينتصر على المثبطات الداخلية، والمعوقات الخارجية.

ويؤكد الراغب أن الإنسان خلق على هيئة العالم، ولذلك ففيه كما في العالم أشياء لا يمكن إصلاحها؛ فلابد من اعتبار العالم، والإنسان غير تامين.

وعلى الإنسان أن يجتهد في العمل ما أمكنه، ويطهر نفسه بقدر ما يتيسر له.

ولقصور الإنسان عن تزكية نفسه بالتمام؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"ما أحد يدخل الجنة بعمله،** قيل: ولا أنت يا نبي الله؟ قال:**"ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته"**[47].

[47] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، حديث رقم 5986، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب: لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، حديث رقم 5038.

وقال تعالى تنبيها على هذا المعنى:

{وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [النور: 21]

والهجرة لله، والجهاد في سبيله، حقيق أن يهدي الإنسان سواء السبيل، قال تعالى: **{والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا}**[48].

وهؤلاء المهاجرون، المجاهدون، هم المتحققون بأحوال الأنبياء والأولياء، المخصوصين بالكرامة.

هكذا أيها السادة، يمضي بنا الراغب في رسالته الصغيرة، منذ ما يقرب من تسعمائة عام، ليوضح لنا السبيل الإسلامي الصحيح لتحقيق الإنسية في ذواتنا.

فهو يعرفنا بما لنا من الاستعداد الفطري للخير والشر؛ ويذكرنا بأننا خلقنا لنكون خلفاء الله في عمارة الأرض، وإقامة الشريعة فيها، والتعاون بيننا، على إيجاد حاجياتنا، وحماية أمننا، ونشر العدل في علاقاتنا مع بعضنا، وكل واحد منا بكدحه وكده، ومواظبته على العمل، يستطيع أن يفتح شخصيته، وينمي كيانه، ويحقق في نفسه الحرية المنوطة بالتكليف، والمنتجة للمسؤولية.

وهجرته عن الأمور الدنيئة، ومجاهدته الشهوات البهيمية ترفعه إلى مستوى العامل الكادح، المجد المنتج، لما ينفع الناس من خير وسعادة، ولما يجلبه لهم من السلام والاستقرار والطمأنينة، وتجعل منه نموذج الإنسان الذي يستطيع غيره أن يقتدي به، ويقتبس من معرفته وحكمته وعمله.

وهكذا تتحقق له تلك اللحظات التي يدرك فيها إنسيته الخالدة، يعيها في نفسه، ويلقنها لغيره، وتلك هي قوة الرسالة الإسلامية، التي تجعل من حيوانيتنا إنسانية عالية، معتزة بالإيمان وبالعمل، معتمدة على العقل والعلم، سالكة مسالك الشريعة وأخلاق القرآن.

---

[48] سورة العنكبوت: الآية 96.

المصدر:

مقال في **جريدة العلم الأسبوعي**، العدد 103، بتاريخ 2 أبريل 1971.

وهو عبارة عن دراسة في كتاب: **"تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين"** للإمام أبي القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الراغب الأصبهاني، المتوفى في رأس المائة الخامسة.

إحيـــاء
للتنمية الأخلاقية

Ihyae
Ethics Development

/IhyaeFoundation

جميـع الحقوق محفوظة © 2019